خطورة الفكر العلماني على بعث الإسلام من جديد

محاور المقال:

- **معنى الدين.**
- **الجذور التاريخية للعلمانية.**
- **معاني العلمانية.**
- **الفرق بين الإسلام والعلمانية.**
- **الدولة الإسلامية.**
- **حتمية المواجهة.**
- **لماذا فشلت العلمانية في بلادنا ؟**
- **مكمن الخطورة في الفكر العلماني.**

من المنظور الإسلامي لكل إنسان على وجه هذه الأرض عبادة ودين، حتى من يدعي الإلحاد !

في التصور الإسلامي الإنسان مفطور على العبودية، بمعنى أنه حتماً سيقع تحت العبودية، حتى إذا ادعى الإلحاد.. عَبد نفسه، أو اتخذ الطبيعة إله، وفي ذلك قال الله – سبحانه – : { أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} [الجاثية : 23] { أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً. أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً } [الفرقان : 43،44]

والدين في التصور الإسلامي هو منهج الحياة، وليس هو مجرد ما يدعيه القوم من مسميات لأنفسهم أو لآبائهم أو مسميات لدور العبادة. الدين منهج حياة، أي طريقة حياة الناس السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والفكرية والأدبية والفنية والروحية والمادية... إلخ. كل أولئك يُشكل مفهوم الدين – في التصور الإسلامي – وبه يتحدد على أي دين يكون الناس، وليس هو الميراث التاريخي أو التراثي لمجموعة من البشر.

والإسلام – رسالة التوحيد التي جاءت بها كل الرسل – يحارب كل مظاهر العبودية لغير الله سواء في الاعتقاد والتصور، أو الشعيرة والنسك، أو في الحكم والتشريع، أو في القيم والموازين، أو في التصورات والمفاهيم.. يحارب كل مظاهر الشرك والعبودية لغير الله ويرد الأمر كله لله – سبحانه – بلا شريك.

أرسل الله – تعالى – الرسل، وأنزل الكتب؛ لتُذكر الناس بعهدها مع الله، وبما هو مركوز في فطرتها من عبودية لله.. إما لتعالج شِرك في الاعتقاد والتصور، أو شِرك في العبادة والنسك، أو شِرك في الحكم والتشريع، أو انحراف في الأخلاق والسلوك أو في القيم والموازين. وكان الناس يرفضون دعوة الرسل ! لدوافع شتى وسبل للشيطان كثيرة، منها:

- كانوا يدّعون أنهم على دين آبائهم الصحيح، وأنهم لن يتركوا دين آبائهم.
- كانوا يدّعون أن الله لم يأمر بذلك، ولو شاء الله لأجبرهم على الدين الذي يشاء.
- كانوا يدّعون أن الرسول الذي أرسل إليهم مجنون أو ساحر أو سفيه أو ضعيف أو غير ذات مال أو منصب أو مكانة.
- كانوا يدّعون أن الله لن يحاسبهم على ذنوبهم؛ لصلة خاصة معه. وإذا فعلوا الفواحش قالوا: وجدنا عليها آبائنا، وادعوا أن الله أمرهم بها !
- كانوا يدّعون إنكار البعث والحساب والجزاء، وإن هي إلا الحياة الدنيا يمرحوا ويفجروا فيها.
- كانوا يدّعون أن لهم حرية التصرف في الأموال كما يشاؤون، وأن الدين ليس له علاقة بأموالهم.

ادعاءات وتبريرات لا تنتهي، والنفس المنحرفة والفطرة المنتكسة لن تعجز عن إيجاد حجة أو وسيلة لرد دعوة الرسل والأنبياء.. فحبائل الشيطان كثيرة، ومداخله متنوعة.

كان هناك ثمة سمة بارزة في طبيعة الصد عن دعوة الرسل هذه، وهي تحاول رد الأمر كله لله:

إنها تواجه طاغوت القوم، والملاء معه، فهم أكثر الفئات المتضررة من هذه الدعوة، فبعد أن كان الناس يعبدونهم سواء بالعبادة المباشرة، أو بالخضوع المُذل، أو بتشريع منهج الحياة لهم، تأتي رسالة الله لترد الأمر كله إليه، ويكون كل الناس أمامها سواء.. فحاربوها بكل وسيلة، وبكل سلاح.

ولقد يبدو دافع الطاغوت والملأ معه عن امتيازاته ومصالحه التي يحصل عليها من استعباد الناس فيه

شيء من الوجاهة - إذا كانت الحسابات بمقاييس الدنيا وحدها - فإن العجب ليبلغ مداه عندما نجد الجماهير المُستعبدة والمُستذلة ترفض هي الأخرى دعوة التحرير من العبودية لغير الله !!

ولعل السبب في ذلك أنه بطول الاستعباد والخضوع والعبودية للطاغوت تنهار البنية النفسية السوية للإنسان، وتنتكس فطرته، فلا يعود يرغب في التحرر، والتغيير، لا يعود يرغب في الكرامة والعزة فهو لا يقوى عليها، فيكون الاستكبار عن دعوة الحق، أو الحقد والحسد والغل تجاه من يحملها ! فيواجهون دعوة التوحيد والحرية بالنفور والإعراض، ويرفضون اليد الممدودة إليهم بالنجاة، ويلفظون رسالة النجاة..!

والطاغوت والملأ معه، لا يتركون الجماهير تفكر وتتدبر طرفة عين، إنهم يحيطونهم بسياج ضخم كبير من الكُهان ورجال الدين الذي يؤكدون لهم دوماً أنهم على خير منهج وطريق، ويحيطونهم بسعار من الشهوات لا ينطفأ ولا يهدأ أبداً، ويحيطونهم بأوهام وأساطير، ويأسرون أجسادهم وأرواحهم. فيرفضون - وهم المُستعبدون والمُستذلون - دعوة الحرية ورسالة النجاة!!

وهنا يتبين مدى الجهد الذي بذله الرسل والأنبياء عليهم صلوات الله أجمعين.

هكذا كانت سيرة الرسل والأنبياء، يُبلغ الرسول، ويحمل الرسالة ومعها البشرى والنذير.. ثم يهدي الله من يبحث عن الهداية، ويعلم الله في قلبه خيراً، وينجي الله الرسل والذين آمنوا معهم ويُهلك الكافرين.

ثم جاء في نهاية موكب الرسل قوم موسى - بني إسرائيل - فأرسل الله إليهم الرسول تلو الرسول حتى كان آخر رسولهم عيسى - عليه السلام - يحمل رسالة إحيائية تعالج قسوة القلوب، ومُتخذة من شريعة موسى - عليه السلام - منهجاً للحكم والحياة. ثم وقع العداء بين اليهود - قوم موسى - وبين أتباع المسيح - عليه السلام - بعد قضية ادعاء اليهود صلّب نبيهم المسيح. فانفصلت رسالة المسيح عن شريعة موسى، وصارت رسالة بلا شريعة ! ورغم أنها كانت رسالة خاصة ببني إسرائيل وليست عامة، ادعى المسيحيون أنها رسالة عامة وحملوها - بلا شريعة - إلى الناس، ووقعت تحت قهر الدولة الرومانية حتى القرن الرابع الميلادي، وهنا بداية وضع بذور العلمانية !

في بداية القرن الرابع الميلادي، وبعد قرون سابقة من الاضطهاد للديانة المسيحية من قِبل الرومان، اعتراف الإمبراطور قسطنطين الأول [307-337 م] بالمسيحية وحاول الجمع والتوفيق بين الديانة الوثنية القائمة، وبين الوافد الجديد "المسيحية" فاحتوى بلاطه على العديد من رجال الدين المسيحيين، إلى جانب الكهنة والفلاسفة الوثنيين، كما قسمت الوظائف الكبرى بين المسيحيين والوثنيين، بل إن النقود

التي أمر بصكها احتفظت أيضاً بإشارات تدل على المسيحية والوثنية معاً.

وقد خلق ذلك إشكالية في العالم الروماني – المسيحي الجديد، فمن المفترض أن الكنيسة كان لها اليد الأعلى على الشعب المسيحي، وكذلك فإن قسطنطين – رغم مسيحيته – كان يصرُّ على التمسك بالإرث السياسي الروماني القديم الذي يضع الإمبراطور في المكانة الأعلى بالنسبة إلى شعبه.

فبدأ الصراع الكنسي العلماني بداية مبكرة جداً عما يظن البعض، بدأ بين الإمبراطور قسطنطين من جانب، ورجال الكنيسة من جانب آخر، فقسطنطين خشي على تفكك الدولة بعد دخول طبقات دنيا من المجتمع الروماني في المسيحية، فتحول نحوها لاعتبارات سياسية واجتماعية.. خلافاً لسابقيه الذين كانوا في حالة عداء دائم مع المسيحية، ومن ناحية أخرى لم يعترف للكنيسة بأي دور سياسي، ثم بدأت المجامع المقدسة التي حرّفت الديانة المسيحية بصورة كاملة؛ وقضت على ما بقي من ديانة التوحيد، وأشهر تلك المجامع "المجمع النيقاوي القسطنطيني" سنة (325 – 381 م) والذي اخترع "عقيدة الثالوث" متأثراً في ذلك بالفلسفات الوثنية الأفلاطونية السادة في ذلك العصر.

وبعد دخول "قسطنطين" في المسيحية؛ وجدت الكنيسة موطن قدم ووجود راسخ بعد انتشار المسيحية بحرية دون اضطهاد، وصارت صاحبة السلطان الروحي والديني والكهنوتي، وصارت أحد مكونات الدولة الرومانية.. بعد عصور من الاضطهاد والظلم، وصارت في حالة توافق دائم مع كل امبراطور حتى إن العقيدة كانت تتغير حسب رغبة كل امبراطور.

وكانت "طبقة الكهنوت" وحدها هي التي تملك الأسرار، وهي وحدها – دون غيرها – تملك تفسير النصوص الدينية، والوساطة بين الشعب والله ! وهذا هو رأس مال الكنيسة وسلطانها، وتم تقسيم المجتمع من الناحية الدينية إلى (كاهن "رجال دين"، وعلماني "بقية المجتمع – العامة")

وكان هذا يتم في عصور أوربا المظلمة بصورة مستبدة؛ جعلت الكنيسة تتحكم في الروح والجسد بالاشتراك مع الامبراطور، ولما ثارت أوربا للقضاء على عبوديتهم وقهرهم باسم الكنيسة وباسم الإمبراطور.. ظل هذا التقسيم قائماً في الذهنية المسيحية "علماني - كاهن" ودار الصراع قديماً وحديثاً على امتيازات ووظائف كل منهما، حتى انتهى إلى الفصل بين كل منهما بعد الثورة الفرنسية.. **العلماني**: يبقى علمانياً ينظم أمور حياته بعيداً عن الكاهن، **والكاهن**: يبقى كاهناً ينظم أمور الكنيسة الروحية لمن يشاء من العلمانيين.

وهذا هو الأصل الأساسي الذي يجب اعتباره عند دراسة وفهم "العلمانية" لأنها تضعنا في المكان والزمان والظروف والملابسات التي نشأت فيها.

وهذا هو الأصل عند الحديث عن "الدولة المدنية" في مقابل "الدولة الدينية" للكنيسة في عصورها الوسطى المظلمة.

ولما قامت الثورة الفرنسية بعد تفشي ظلم رجال الدين والكهنوت، والملوك والإقطاعيين.. ثارت على تلك "الدولة الدينية" بكل مكوناتها وإرثها البغيض، فكانت:

- "الدولة المدنية" بديلاً عن "دولة الكنيسة الدينية والإمبراطور".
- و"العلمانية" بديلاً عن الكهنوت، بل والدين برمته ! وانتصاراً "للمجتمع العلماني وغالبيته العظمى" على "طبقة محدودة من الكهنوت".

ومع كل هذا التحول والتغير في "الديانة المسيحية" التي كانت تتم في "المجامع المقدسة" تحت إشراف الإمبراطور الذي كان يرعى تلك المجامع؛ جعل "دين العلمانية" الذي اعتنقته أوربا بعد ثوراتها يقول إن الديانات (صناعة بشرية).. وهي تحترمها لاحترامها للإنسان الذي يعتنقها، لكن لا تعترف بأي دور لها في الحياة، ولعل "العلمانية" صادقة في حديثها عن المجامع أنها "صناعة بشرية" بعد كل هذا التحوير والحذف والإضافة التي كانت تتم في "المجامع المقدسة" ! ولذا جاءت مفردات العلمانية (انتصار الإنسان على الله – نسبية الأخلاق والقيم – فصل أي دين وغيب عن واقع الحياة، والانتصار للمادة واللذة)!

ولذا جاء في تعريف العلمانية أنها "العامة – عامة الشعب" وأنها انتصرت على الفئة القليلة المحدودة التي استعبدت حياتها باسم الدين والإمبراطور.. وظل في الذهنية الرومانية الأوربية ارتباط الدين بالاستبداد، فالدين في خدمة العرش، ويتقاسم رجال الدين "الكهنوت" والإمبراطور ورجاله الدولة، وبقية الشعب عبيد، فجاء عصر النهضة والعصر الحديث لينسف تلك المعادلة، وينتصر للعلمانية، ويتحرر من الدين والاستبداد ورجاله.

انتصرت الثورة الفرنسية، وبدأ عصر الدولة القومية.. وتغير بعدها وجه العالم بعد حربين عالميتين، خرج منها العالم الإسلامي نتيجة الاستعمار وسقوط الخلافة شتات وفتات ودويلات !

أطبق العالم الغربي على دول العالم الإسلامي دفعة واحدة ومزقها كل مُمزق، فالعالم الإسلامي هو الكيان

الوحيد الذي يهدد الحضارة الغربية، ولقد عرفوا ما هو الإسلام وأهله من حروبهم الصليبية ! فجاءوا إلينا بدينهم الجديد "العلمانية" محمولاً على فوهة البنادق وفوق دماء وأشلاء الأمة، وتركوا طغمة عسكرية غاشمة تحمي العلمانية وتقهر شعوبها.. وهكذا نشأت تلك النبتة الخبيثة في بلادنا، وارتبطت بالحكم العسكري أو "العلمانية العسكرية" والتي أسس لها في مصر محمد علي، وفي تركيا كمال أتاتورك.

فالأمة الإسلامية لم تثور على دينها، مثلما فعلت أوربا مع دين الكنيسة وتحررت من قهره واستبداده وكهنوته، بل فرضت أوربا على الأمة الإسلامية "العلمانية العسكرية" بقوة السلاح أولاً ثم بالتعليم والفكر والثقافة والآدب والفن والاقتصاد والسياسة.. إلخ، بل إن الأمة الإسلامية انهزمت وسقطت دولتها عندما تركت دينها، وانحرفت عنه، وضاع منها الهدف الذي من أجله أُخرجت للناس.

وقعت الأمة كلها أسيرة الدولة القومية، وفُرض عليها دين أوربا الجديد "العلمانية" وأصبحت هوية دولنا كلها "علمانية" ومبادئها علمانية سواء نصت الدساتير على ذلك، أو خدعت الناس بمادة في هذا الدستور أو ذاك، فالعلمانية مفروضة بقوة الاستعمار من الخارج، وبالقوة العسكرية من الداخل !

ثم ورثت أمريكا الاستعمار البريطاني والفرنسي، وأضافت إلى "العلمانية" العولمة.. عولمة الفكر والثقافة والسلوك والاقتصاد والسياسة ونمط الحياة، لتصبح الحياة والمجتمع البشري كله في ذيل أمريكا !!

وخرج من العلمانية النظم السياسية والاقتصادية والفكرية مثل: (الديمقراطية – الليبرالية – الرأسمالية – الشيوعية – الاشتراكية...إلخ).

فالديمقراطية هي حكم الشعب، كما هي العلمانية العامة من غير الكهنوت، وهي لا تعمل إلا داخل الإطار العلماني، فهي نظام سياسي مشتق ومستخرج من العلمانية في إطارها الواسع. وهذه الديمقراطية بالمفهوم الغربي يكاد يكون لا وجود لها في بلادنا؛ لأن الاستعمار مُحدد الاختيارات لنا في: الملكية الوراثية أو الجمهورية العسكرية، ويصبح الحديث عن حكم الشعب والأغلبية والمجالس النيابية مجرد عبث وشيء صوري لتلهو به الشعوب !!

***

والآن.. وبعد هذا الاستعراض التاريخي السريع، نتحدث الآن على النظرة الإسلامية للعلمانية، وما الفرق بينهما ؟

معاني للعلمانية:

العلمانية في التعريف الكهنوتي المسيحي: تعني فرد من العامة، أي غير منتسب إلى الرهبانية، فدخل هذا اللفظ الإنجليزية والفرنسية من اللغة اليونانية وتعني العامة أي عكس الإكليروس والكهنوت.

العلماني في قاموس أوكسفورد (Secular): شخص دنيوي، ليس له علاقة بالأمور الدينية أو الروحية.

العلمانية في المصطلح السياسي: حكم مدني لا ديني، ولا يخضع للسلطة الدينية، وبمعنى آخر: الأنشطة البشرية والقرارات وخصوصًا السياسية منها يجب أن تكون غير خاضعة لتأثير المؤسسات الدينية.

العلمانية في الاصطلاح الفلسفي: تفسير النظام الكوني بصورة دنيوية بحتة بعيداً عن الدين، في محاولة لإيجاد تفسير للكون ومكوناته.

الحياة العلمانية: لا يوجد حقيقة مطلقة، وكل شيء مباح، والقانون ما يُشرّعه الناس لأنفسهم ويتفقوا عليه. وتقدم دائرة المعارف البريطانية تعريف العلمانية بكونها: "حركة اجتماعية تتجه نحو الاهتمام بالشؤون الدنيوية بدلاً من الاهتمام بالشؤون الآخروية. وتحويل بؤرة الوجود من الإله إلى الإنسان".

العلمانية في التفسير الاجتماعي: يقول الفيلسوف الإنكليزي جون لوك في العلمانية: "من أجل الوصول إلى دين صحيح، ينبغي على الدولة أن تتسامح مع جميع أشكال الاعتقاد دينيًا أو فكريًا أو اجتماعيًا، ويجب أن تنشغل في الإدارة العملية وحكم المجتمع فقط، لا أن تنهك نفسها في فرض هذا الاعتقاد ومنع ذلك التصرف. يجب أن تكون الدولة منفصلة عن الكنيسة، وألا يتدخل أي منهما في شؤون الآخر. هكذا يكون العصر هو عصر العقل، ولأول مرة في التاريخ البشري سيكون الناس أحرارًا، وبالتالي قادرين على إدراك الحقيقة".

الدولة العلمانية: هي الدولة التي لا تخضع لسلطة دينية، وتنص دساتيرها على هويتها العلمانية، ولا تختار دين رسمي للدولة يترتب عليه أي شيء.

الدولة المدنية: هو مصطلح تم اشتقاقه من الدولة العلمانية، وفيه تؤمن الدولة بجميع المبادئ العلمانية، ولا تخضع لسلطة دينية، ولكنها قد تختار دين رسمي للدولة. لكنها تظل على الحياد من كل الأديان، أو بمعنى آخر "الدين لله، والوطن للجميع".

غاية العلمانية: هي طريقة للحكم، ترفض وضع الدين أو سواه كمرجع رئيسي للحياة السياسية

والقانونية، وتتجه إلى الاهتمام بالأمور الحياتية للبشر بدلاً من الأمور الآخروية، أي الأمور المادية الملموسة بدلاً من الأمور الغيبية. وتجعل من الانتاج والاستهلاك هو غاية الوجود البشري !! ولذلك ظهرت الدولة القومية العلمانية في الداخل والاستعمار الأوروبي في الخارج لضمان تحقيق هذه الزيادة الإنتاجية. ثم استبدل الاستعمار العسكري بأشكال أخرى من الاستعمار السياسي والاقتصادي والثقافي، واتجه السلوك العام نحو الاستهلاكية الشرهة. في هذه المرحلة أصبح الاستهلاك هو الهدف النهائي من الوجود ومحركه الحرية واللهو والتملك، واتسعت معدلات العولمة لتتضخم مؤسسات الشركات متعددة الجنسيات والمنظمات غير الحكومية الدولية وتتحول القضايا العالمية من الاستعمار والتحرّر إلى قضايا المحافظة على البيئة والمساواة بين المرأة والرجل وبين الناس وحماية حقوق الإنسان ورعاية الحيوان وثورة المعلومات.

***

من هذه التعريفات السابقة يعتبر الإسلام العلمانية "منهج حياة وتصور" وعليه تأخذ لفظ "دين" فالعلمانية تتحدث عن تفسير للوجود، وإبعاد الأديان الأخرى غيرها عن الحكم، وهي تفصل بين الدين والدولة، وتفصل بين الحياة الدنيا والآخرة، وتنتصر للحياة الدنيا.. وفي هذا المعنى يقول الله تعالى: { مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ. أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ } [هود : 15،16] { وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ } [الجاثية : 24]

وكما ذكرت إن العلمانية وُلدت من رحم الصراع الكنسي والحق الإلهي وطبقة الكهنوت والإمبراطور، ونشأت وكبرت ونمت في تلك التربة في عالم الغرب، ولا تمت بأي صلة فكرية أو تاريخية أو عقدية بالإسلام وبتاريخ الإسلام وبالأمة الإسلامية ومشكلاتها. وإنما فُرضت علينا بقوة السلاح، ومازالت تُفرض علينا بقوة السلاح، وبالاستعمار السياسي والاقتصادي والثقافي والفكري.. وبالهيمنة والتبعية للغرب والنظام الدولي.

لكن الكارثة الكبرى أن الاستعمار والعلمانية العسكرية أخرجت أجيال تؤمن بهذا "الدين الجديد" من خلال التحكم في التعليم من روضات الأطفال حتى أرقى الجامعات.. والتحكم في الثقافة والفكر والآدب والفنون والإعلام والاقتصاد والسياسة والمؤسسات المجتمعية والنوادي.. وأسبغت عنايتها البالغة على "الطبقة الغنية – الراقية" التي ستكون ذراعها والدم الجديد والمتحكم في المجتمع سياسياً

وفكرياً وثقافياً واقتصادياً وإعلامياً.. إلخ! خرجت هذه الأجيال لا تعرف إلا العلمانية ديناً – منهج حياة – والدين المورث عن الآباء محصوراً – كما أرادت العلمانية – في حدود دور العبادة، وعلاقة بين العبد وربه ليس له علاقة بحياة الفرد أو المجتمع. فالأصل في العلمانية أنه لا يوجد حقيقة مطلقة، وكل شيء مباح، والقانون هو ما يفرضه الأغلبية.

***

فما هو الإسلام ؟

الإسلام: ليس هو ديانة في مقابل الأديان الأخرى، ليس هو خانة في بطاقة الهوية بجوار السن والعنوان! بل هو دين أي منهج حياة، وكل منهج حياة هو دين.

الإسلام: هو رسالة من الله لبني البشر لتستقيم به حياتهم بكل مناشطها ومجالاتها سواء أكانت سياسية، اقتصادية، اجتماعية... إلخ.

الإسلام: هو اعتقاد في الله سبحانه ينشأ عنه التصورات والقيم والموازين والأخلاق والشعور والأدب والفكر والثقافة والفن.

الإسلام: هو تعريف وتصور عن الله والكون والإنسان والحياة.. وينبثق عن هذا التصور نظام اجتماعي ينطلق لخلافة الأرض وفق هذا التصور.

الإسلام: هو شريعة ربانية نزلت لتُقوّم حياة البشر، ليَقوم الناس بالقسط والعدل والحق الرباني.

الإسلام: هو رسالة السلام العالمية التي يحملها للجنس البشري.

الإسلام: هو رسالة الرحمة والنجاة في الدنيا والآخرة.

الإسلام: هو رسالة الحب للإنسانية بإرشادها لصراط الله المستقيم، فيحمل البشرى والنذير.

إن الإسلام ليس له القدرة فقط على معالجة مشكلاتنا السياسية وطرق الحكم فحسب، بل هو بناء كامل متكامل لا يعالج مشكلة سياسية بمعزل عن المشكلات الأخرى، إنما هو بربانيته وشموليته وإيجابيته ومثاليته وواقعيته وتوازنه يعالج "الحالة الإنسانية" ككل ويدخل عليها من جوانبها: المادية متكاملة، والروحية متناسقة.. فلا يدعه إلا وهو مستقيم المنهج، قوي الأركان، متوازن الخطى، مطمئن النفس، مستريح الضمير.. إنه لا يعالج مشكلة سياسية فيُحدث كارثة اقتصادية، أو يعالج مشكلة اجتماعية

فيُحدث كارثة سياسية، إن يتحرك ككل متكامل لمعالجة الإنسان أينما كان، وكيفما كان؟ ويرتقي ليصعد به على قد ما يستطيع ذلك الإنسان.

إذن هو منهج، ومنهج عميق جداً يلمس أعماق الإنسان، ويصل لأعماق الحياة بكل حيويتها ومشكلاتها.. هو منهج للإنسان والحياة، منهج للإنسان يدخل على نفسه ليأخذها من كل أقطارها نحو السماء، فيرتقي بالروح، ويضبط حركة الجسد. إنه يتناغم مع روح الإنسان، ولا يصطدم بفطرته وطبيعته، ويُنشأ في النفس والعقل والقلب القيم الصحيحة، والموازين الدقيقة، ويُقيم قاعدة من الأخلاق على أساس من العقيدة ذات العروة الوثقى. وهو منهج للحياة يعالجها من كل جوانبها، ولا يعالج جانب ويغفل آخر فيختل التوازن الحياتي.. إنه يقرر ما هو الحق، وما هي الحقيقة. ويحدد ما هو الباطل، ولا يدع ذلك لأهواء البشر.

فتتناغم العقيدة مع العبادة في حركة من أجل إقامة الشريعة؛ لخلافة الإنسان وقيام الحضارة الربانية.

إذن..

الإسلام ليس فيه كهنوت، أو طبقة رجال دين.

الإسلام لا يحكم بموجب سلطة إلهية تحتكرها طائفة من الناس تُقدس هذا، وتحرم هذا.

الإسلام ليس فيه دولة دينية أو مدنية أو ديمقراطية أو استبدادية أو ملكية أو عسكرية.

الإسلام ليس فيه اشتراكية أو رأسمالية أو ليبرالية أو شيوعية أو غيرها من المذاهب الأرضية.

الإسلام رسالة متفرّدة في كل شيء، وتحمل خصائصها الذاتية، فهي الرسالة الأخيرة للعالمين، والتي تكفل الله تعالى بحفظها، وجعلها منهج الحياة الوحيد الصالح للحياة البشرية وطريق النجاة الوحيد في الحياة الآخرة، ولا انفصال بين الدنيا والآخرة في منهجه.

إن الإسلام يضع المعالم لشكل الدولة – المتجدد والمتفرّد – بنظامها السياسي والاقتصادي والقضائي والاجتماعي...إلخ، وكذلك الثقافي والفكري والفني والأدبي. (راجع – إن شئت – بحث الشورى وآلياتها ومعالم الدولة المسلمة).

وهو منهج متفرّد بالربانية، والثبات، والشمول، والإيجابية، والتوازن، والواقعية، والمثالية.

فالدولة الإسلامية ليست دولة ديمقراطية أو استبدادية أو دينية أو مدنية أو عسكرية أو ملكية أو اشتراكية أو رأسمالية.. بل - بكل بساطة ووضوح - دولة إسلامية، ووصف الإسلام كفيل بجعلها متفرّدة ولا تمت للمذاهب والمناهج والنماذج الأرضية بأي صلة. ووصف الإسلام لا يحتاج معه أي أوصاف أو إضافات أخرى.

فالدولة الإسلامية:

دولة: يعلوها شرع الله وحكمه. وهذا الشرع يسري على الحاكم والمحكوم، وليس له سلطة كهنوتية مقدسة.. بل هو علم يطلبه من يستطيعه ويحيطه وليس فيه أسرار ولا معاني باطنية.

دولة: يأتي الحاكم فيها بمشورة الأمة واختيارها، والحاكم فيها فرد قائم على الشرع، وعلى حماية وصيانة مصالح الأمة، وليس له امتيازات مادية أو سلطة ملكية أو استبدادية على الأمة بأي صورة من الصور.

دولة: يتساوى فيها الجميع أمام حكم الله، ولا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى، ولا امتياز لجنس أو طبقة أو قوم.

دولة: تحمل رسالة الله إلى العالمين، وتقوم بالدور الذي من أجله أخرج الله تعالى هذه الأمة للناس.

دولة: أمتها حية نشطة تقوم على خلافة الله في الأرض، وقيام الحضارة الربانية.. فلا تُضيع حياتها في العبث واللهو والضياع.

دولة: أمتها تتكافل وتتراحم فيما بينها، ويسود الود والتآخي، والعلاقات الاجتماعية والأسرية القوية التي تُمثل بنية الأمة.

دولة: تحمي حقوق أصحاب الملل الأخرى، وأهل الذمة.. وتترك لهم حرية الاعتقاد وإدارة شؤونهم الداخلية، دون العبث بمنهج الدولة وشرعها.

***

هذا - باختصار - الفرق بين العلمانية والإسلام، وإن الإسلام يحكم على العلمانية - وما يخرج عنها - بأنها دين الكفر، وأنها طاغوت يجب الكفر به، والإيمان بالله وحده بلا شريك.

وإن الإسلام داخل – لا محالة – في حرب وجود مع العلمانية لعدة أسباب:

- إنها دين الكفر الذي يستذل البشرية، والإسلام رسالة تحريرية عالمية.

- إن العلمانية حلّت كمنهج حياة في بلاد الإسلام، والإسلام سيعود ليثور عليها، ويقتلع نبتتها الخبيثة.

- إن العلمانية ارتبطت بالاستعمار الصليبي والقهر والذل والهيمنة والتبعية وشتات الأمة، والإسلام سيدخل معها في معركة فاصلة.

- العلمانية هي هوية الحكم في بلادنا، والإسلام يريد أن تسود هويته وشريعته ومنهجه.

لماذا فشلت العلمانية في بلادنا، ونجحت – دنيوياً – في بلاد الغرب ؟

لأن العلمانية نشأت في بلاد الغرب للتخلص من دين الكهنوت الذي قهرها واستعبدها، فتخلصت منه ومن الاستبداد، وانطلقت تعمل في الدنيا فوفى الله إليهم أعمالهم فيها: { مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ } [هود: 15]

وفشلت في بلادنا وستظل تفشل.. لأنها جاءت مرتبطة بالقهر والاستعمار وسرقة الثروات والهيمنة والتبعية للغرب، ولأن الإسلام يقف لها بالمرصاد وسيُعطل عملها.. العلمانية تحصر الإسلام في شعائر وطقوس، والإسلام منهج حياة متكامل وينبعث تلقائياً، ولا ينطفأ نوره، ولذا لن يدع العلمانية تُكمل طريقها أبداً.

وكذلك من يحاول الجمع بين العلمانية والإسلام يحاول محاولة فاشلة تماماً، فالعلمانية تُعطل عمل الإسلام، لأنهما منهجان متضادان ومختلفان لن يلتقيا في أول الطريق أو في منتصفه أو في آخره.. وهنا يتبين مدى الجريمة التي يحاول فيها البعض الجمع بين العلمانية بمكوناتها (كالديمقراطية – المدنية – الليبرالية... إلخ) مع الإسلام بمكوناته (الهوية – الشرع – المجتمع – الدولة – السيادة – الجهاد – الرسالة – الحضارة)!

وإن كل مخرجات الجمع بين العلمانية والإسلام في بلادنا، ما هي إلا مسخ مشوه لن ينفع في دنيا أو آخرة. كالذين يقولون: دولة مدنية بمرجعية دينية ! أو دولة مدنية ديمقراطية بثوابت الهوية ! وهم كالذين قالوا من قبل: الإسلام الاشتراكي، والإسلام الرأسمالي.. وهم كذلك كالفتاة التي تغطي شعرها بقطعة من

القماش – ظناً منها أن هذا هو الحجاب! – ثم تُظهر كل مفاتن جسدها بل وعورتها ! فلا هي اتبعت الإسلام، ولا هي أدركت "المنهج العلماني ونمط حياته متكاملاً" فكانت النتيجة على كل المستويات سواء السياسية أو الاجتماعية أو الفكرية مسخ مشوه قبيح !

وليس أدق مما أخرجته مؤسسة راند البحثية – ذراع وزارة الدفاع الأمريكية الفكري – عندما حاولت البحث عن دين توافق عليه أمريكا، ويكون مناسباً للشعوب التي ترغب في الخروج من الاستبداد فجاء اسم بحثها: "الإسلام المدني الديمقراطي" [أي الإسلام (بلا شريعة) + العلمانية] معادلة يستحيل أن تنجح أبداً، ويستحيل أن تُخرج الأمة مما هي فيه، ويستحيل أن تحقق لها سيادة أو كرامة أو قيام دولة للإسلام. لأنهما طريقان مختلفان ودينان متضادان !

يطرحون تلك الأبحاث، ويتركون الأمة التي لا تعرف دينها ولا تقرأ أن تختلف في الإسلام والمدنية والديمقراطية.. فيقولون:

- الإسلام فيه شورى والشورى هي الديمقراطية ! (راجع الفرق بين الديمقراطية والشورى)
- دولة الإسلام دولة مدنية !
- نحن نؤمن بآليات الديمقراطية لا فلسفتها !
- نحن نحترم أحكام الشريعة في الزواج والمواريث والأحوال الشخصية، لكن الأمور السياسية والاقتصادية فلنا فيها رب آخر!!

ونمضي في هذا البعث لا نخرج منه، لأنه كما ذكرت سابقاً أن هوية الدولة علمانية يحميها الاستعمار من الخارج والقوة الغاشمة العسكرية من الداخل!

إن من مكونات دين العلمانية "الديمقراطية" وخلاصة القول في الديمقراطية: "هي أنها لا تعمل إلا داخل إطارها العلماني، وتحت الوصاية العسكرية العلمانية" ولما ملّ العلمانيون من أن صناديق الانتخاب تأتي في كل مرة بالتيار الإسلامي، قالوها صريحة: الديمقراطية ليست فقط صندوق انتخاب، وإنما هي مبادئ – أي المبادئ العلمانية – ونظام الحياة الغربية، وإذا أتت صناديق الانتخاب بما لا ترغب به العلمانية هدمها العسكر ووضعوا الصناديق أسفل البيادة ! ولن يجد العسكر من الغرب الحر! إلا التأييد والنصرة، فالعسكر حماة العلمانية، ووضعهم الاستعمار وسلّحهم لهذا السبب، ولقهر شعوبهم على دينهم الجديد!

مكمن الخطورة في الفكر العلماني:

- ☒ العلمانية دين ومنهج حياة، والإسلام دين ومنهج حياة يناقضها تماماً.
- ☒ العلمانية دين كفر، وطاغوت.. الإسلام يكفر به ويدعو إلى الإيمان بالله وحده بلا شريك.
- ☒ العلمانية دخلت بلادنا فوق فوهة البنادق، وتحت راية الاستعمار، وتحميها قوة عسكرية تدين بدين العلمانية.
- ☒ العلمانية تقدم تفسيراً للحياة والوجود يناقض الإسلام، وتُحدث التصادم بينها وبين الإسلام.
- ☒ العلمانية ستفشل في بلادنا – لا محالة – لأن الإسلام رسالة حية لا تموت، ولا تنطفأ.
- ☒ العلمانية تُعطل عمل الإسلام وطريقته في الحياة، والإسلام يرفض العلمانية ولا يدعها تمضي في طريقها.
- ☒ العلمانية في بلادنا ارتبطت ومازالت بالهيمنة والتبعية والذل والانحطاط في كل شيء.
- ☒ العلمانية دين للحياة الدنيا يُعظم اللذة والمتاع المطلق من كل قيد، وهذا تصور بشع يُفسد الحياة البشرية كلها، ويكرس للظلم والفساد والبغي.

إن الإسلام سيخوض حرب شاملة مع العلمانية على مستوى الدولة والمنهج والفكر وطريقة الحياة.. الإسلام سيسترد – بإذن الله – الدولة من دين العلمانية، وسيحطم تصور العلمانية عن الحياة والوجود ويقدم تفسيره الصحيح، ومنهج الحياة الذي ارتضاه الله تعالى لكل البشرية.

ولن تقوم دولة الإسلام أبداً ما لم ينتصر الإسلام انتصاراً شاملاً كاملاً على العلمانية، ويتحرر من مكوناتها في بلادنا "الاستعمار – الطغمة العسكرية – الهيمنة – التبعية – الفساد".

إن معركة الإسلام مع دين العلمانية قادمة لا محالة، معركة ليست داخل بلادنا فحسب بل في كل الأرض.. معركة على كل المستويات، والمسلمون سيحاربون "دين العلمانية" الذي دخل بلادنا على فوهة بنادق الاستعمار، وعاش تحت حماية الطغمة العلمانية العسكرية.

و لمحاربة دين العلمانية لا بد من: هوية مقابل هوية، وقوة مقابل قوة. الإسلام يستهدف (هوية) الدولة العلمانية ويستهدف الطغمة العسكرية التي تحميها. وله خطاب سياسي إسلامي بكل مكوناته ومشروعاته

يتحدث عن الشريعة والسيادة والكرامة والتحرر من الهيمنة والاستعمار، وسيخوض الحرب مع الاستعمار بشتى سبلها. وسيجتمع تحت راية الله، ولواء شرعه، ويعد ما استطاع من قوة، ولا يفر من المواجهة، وسينتصر على البغي والفساد في الأرض.. ضد قوى العلمانية في حرب التحرير المصيرية.

فطوبى لمن اختاره الله ليكون من جند الإسلام. وسينتصر الإسلام.. هذا وعد الله { وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ } [يوسف : 21]

أحمد طه

2014/01/10